بقلم الاب لامنس اليسوعي

٢

(تتمة)

لقد تقدّم لي ان ذكرت نتوز ، صاحب الملحمة الضخمة في ديونيسوس ؛ وهو ، والحقّ يُقال ، اقدر من تغنى بجمال بيروت الساحر واقربهم الى حرارة الاخلاص وبلاغة الالفاظ والتلاعب بتنسيق الجناسات والمحسّنات البيانية . فلم يبقَ لي الا ان اقدّمه اليكم ، وهو واجب صعب اذ لا نعرف عن هذا الشاعر الكبير الّا اسمه ووطنه . فقد وُلد ، على الارجح ، في القرن الرابع للمسيح ، في مدينة پنوپوليس المعروفة اليوم بأخميم من صعيد مصر . وكان في اول امره وثنيًّا ، الا انه اهتدى الى النصرانية . اما ملحمته الكبيرة فقد خصّها بالاله ديونيسوس او باخوس فذكر فيها جميع مآتيه البطلية وولّد من ذلك مجموعة ضخمة من الابيات لا يتناولها المطالع الا ويشعر بان الشاعر اراد ، دون شك ، ان يعارض هوميروس . ليس في الاوديسية الّا ٢٤ نشيدًا ، اما قريحة نتوز فلا تقف الّا بعد الثامن والاربعين ، وقد ولّدت نحو ثلاثين الف بيت من الشعر اليوناني . فيا للنفس القوي الفيّاض ! ويا للاطلاع الميثولوجي العجيب ! على ان ما يهمّنا خاصّة هو قيمة هذا الشعر من حيث المعلومات والاسانيد . وهي وافرة حتى يمكن القول ان ملحمة نتوز من المصادر الواجب استعمالها لتاريخ فنيقية في القرن الرابع . فهو يذكر عبادة ادونيس على شاطئ النهر المعروف باسمه

كما يذكر «الصخرة اللبنانية التي اقامت عليها ڤينوس منزلها»[1] وواضح ان المراد معبد افقا . الى غير ذلك من الاشارات المفيدة تاريخ البلاد عامة ، وتاريخ بيروت خاصة . ولا يخفى ان مصادر تاريخ ذاك العصر ليس بالوافرة ، فلا نهمل منها شيئاً .

ولا شكّ ان من عناصر الجمال في بيروت غابة الصنوبر . وهي قديمة جداً ، كما يلاحظ رينان ، حتى ان ليس من المستغرب ان تكون بيروت مدينة لها باسمها . ومع كل هذا فكم سمعنا ونسمع من السخافات والاقاويل في اصل هذه الغابة وماضيها ! أوَ لم ينسبها بعضهم الى الفرنسويين الذين اتوا لبنان على اثر مذابح سنة ١٨٦٠ ؟ وهذا لعمري اسخف المزاعم عن اصل تلك الغابة . على ان غيرهم من «المؤرخين» ينسبون شرف غرسها عادةً الى الامير فخر الدين . ولا بأس في ان نلاحظ هنا ان فخر الدين ، والقديسة هيلانة ، وزبيدة امرأة هارون الرشيد ، من الاسماء المتداولة في سورية ولبنان يستعملها العامة ، وبعض الخاصة ، لاخفاء جهلهم فينسبون الى اصحابها ما يرونه من المباني والآثار القديمة ولا يعرفون اصحابه الحقيقيين . وعلى هذه الطريقة نُسبت القناة الرومانية في نهر بيروت الى زبيدة فقيل «قناطر زبيدة» . اما غابة بيروت فقد ورد ذكرها في زمن الصليبيين ، وقدّر الادريسي ، احد جغرافيي العرب ، مساحتها باثني عشر ميلاً مربّعاً . على انه يمكننا ، بفضل نتوز ، ان نرقى الى ابعد من ذلك في ذكر الغابة . فان الشاعر يشير الى «نفس لبنان المحيي الواصل الى سكان بيريت السعداء ممتزجاً بخفيف السرو المتمايل واريجه العطر .»[2] وان موضوع النشيد الثاني والاربعين يجري في «غابة الصنوبر الجميلة» . ولقد كانت غابة حقيقية اذ انها كانت تتصل حتى مرتفعات لبنان . وفيها اخذ باخوس ونبتون يتنازعان بيرُوه اللطيفة ، بنت الماء الحاملة اسم بيريت . وبعد عراك شديد ظفر نبتون اله البحر ، «فاتحد ببيرُوه في عرس

١) النشيد ٢٥ : الابيات ١٤٣ وما بعده .
٢) النشيد ٤١ : الابيات ٢١ وما يليه .

بحري . واخذ من ثمّ يُحبّ وطن زوجته ، ويفيل سكّانه ، ذكرًا لهذا الزواج ، المجدَ الاثيل بان ينتصروا دائمًا في المعارك البحرية . »[1]

ولتطمئنّ امهات البيروتيين ! فلا خوف من هذه المعارك ، ولا سلاح فيها ولا دم مهراق . ان هي الّا معارك اقتصادية كان البيروتيون ولا يزالون — وهم حفدة الفنيقيين — ينتصرون فيها بسهولة . ولكن الا تجدون من الغريب ان نكون مدينين لاقوال هذا الشاعر المصري باقدم المعلومات عن غابتنا ؟

ولعلّ من المفيد بعد هذا ان نذكر ما قاله لامرتين في غابتنا نفسها :

« لقد اصبحت الغابة غاية في الجمال . وجذوع الشجر فيها تبلغ الستين والثانين قدماً مرتفعةً دفعةً واحدة ، مظلّلةً بفيئها مساحة فسيحة . اما الارض فيغطيها مخمل رقيق من الكلأ نُثرت فيه زهور من الاحمر القاني . وهناك بصلات السوسن البرّي ، وهي كبيرة ضخمة حتى ان نعال الخيل لا تسحقها . ومن خلال اعمدة تلك الجذوع الصنوبرية ، يرى الناظر سهل بغداد (كذا والصواب : بعبدا ، لا بغداد) ومجرى النهر ، وزاوية من الخليج تشبه بحيرة صغيرة . . . وان النور لصافٍ ، والهواء لنقيّ حتى انه يمكن الانسان ان يميّز ، على عدة اميال علوًّا ، اشكال شجرات الارز او الخرنوب في الجبال ، او كبار العنبان السائحة ، دون ان تحرّك اجنحتها ، في اوقيانوس الاثير . وان هذا الحرج من الصنوبر لهو ، دون شك ، اروع مشهد شاهدته في حياتي . »

هذا ولو عاد خيال لامرتين الى هذه الاماكن ، أو هل يعرف الغابة التي اوحت اليه هذه الاسطر المملوءة بالاعجاب ؟

ولو وُلد نتوز في لبنان لما كان تغنى بمحاسن بيروت باوفر حماسة وهوس . حتى انه يضيف اليها محاسن قد تكون لم تعرفها ، فيسميها المدينة «ذات الجزُر الانيقة» . ولكن لنتركه يتكلم :

« بيروه فتنة الحياة ، وابنة البحر ، وميناء النعيم ، والمدينة ذات الجزر الانيقة والخضرة الغنية . ليس لها ردف برزخ ضيّق يدقّ رأسه حتى تضربه

---

١) النشيد ٣ : الابيات ٢١٤ وما يلي .

امواج البحرين . بل انها تمتدّ من ناحية الجنوب الحارّة حتى سفوح لبنان الوارفة الظلال ... فهي مدينة اوّلية ، بل هي اولى المدن التي عرفها الزمان المخلوق معها ، فشاهدها تظهر مع الارض معاصرتها ... وفي بيرُوه خرجت ڤينوس لاول مرة من الامواج . اما اهل قبرس فليس لهم من مستند الّا الكتب اذ يدلّون الناس على المكان الذي وضعت فيه الالاهة رجليها في خروجها من البحر . »

هذا ما خصّ المدينة . اما السكان « معاصرو الشفق ، فانهم صورة عنصر الهي ؛ وسنبلة ذهبية ، بين البشر الاولين ، نمت على اصلها الخالص . »[1]

فما رأيكم ، ايها البيروتيون ، في هذا المديح ؟

بعد ان تجتهدوا في تبديد بخوره القويّ المتكاثف ، فكّروا قليلًا في الشاعر الاجنبي الذي خصّص ثلاثة اناشيد من ملحمته ، اي ما يقرب من ١٥٠٠ بيت شعر ، ليبرهن ان مدينتكم اقدم مدن العالم ، بل اجملها ، والطفها ، وانكم اكل المخلوقات في هذا الكون ... فكّروا بهذه الغيرة وتأملوا موقفكم تجاه هذا الشاعر الذي تجهلون حتى اسمه . فلا تمثال ، ولا دمية ، ولا صفيحة تذكارية ، بل لا شارع صغير يمنع الناس من نسيانه النسيان التام ! ...

ولا نجازف اذا قلنا ان نتوز زار مدينتنا . بل اننا نذهب الى ابعد من هذا فنقول لعلّه كان يتردّد الى جامعتنا القديمة ، فيحضر درس اساتذتها . يظهر ذلك من اعتقاده الشديد بفضيلة علم الحقوق وبصلاح الشرائع الرومانية التي كان اساتذة بيريت يشرحونها ويطبّقون عليها جاعلين من مادّة تدريسهم علماً وفناً معاً . عرف كل ذلك ، دون شكّ ، فتأثّر به ، وبدا تأثّره بارزاً من خلال ابياته تأثّرَ شابّ متحمّس لبيريت وما فيها . « بيرُوه جذر الحياة ، ومرضعة المدن ، وكوكب لبنان ، ومقرّ البهجات ... » الى غير ذلك من النعوت التي تفيض بها قريحة نتوز كلّما خطرت على باله محاسن بيريت . على انه يعجب خصوصاً ببيريت « مقرّ العدل ، وسور الفقها ... » فيقول : « ان الاهوية الاربعة التي

---

١) النشيد ٤١ : الايات ١٥ و٤٠ و٨٨ و١١٥ ...

تهبّ على البلدان جميعاً تتايل بالمدينة لتنقل الى العالم احكام بيريت . وان الاوقيانوس ، اول رسول للشرائع ، يحمل امواجها النافعة حتى اقاصي العالم .» ولو كان بامكان نتوز أوضع مركز جمعية الامم لا في لاهاي ، ولا في جنيف ، بل في مدينتنا . كيف لا «والشقاق ، الذي يكتسح الدول، يكفّ عن التعرّض للسلام اذا ما قامت بيريت ، الساهرة على راحة الوجود ، فحاكت الارض والبحار ، وحصّنت المدن بجادّة الشرائع التي لا تُهدم ، واخذت على نفسها تنظيم بلاد العالم . » وهو يلخص معتقده بهذا الحكم : « لرومة سلطة السلاح ، ولبيريت سلطة الحق . » !

***

رأيتم في ما تقدّم المشهد السحري العجيب الذي تتابعت فيه حياة البيروتيين السعداء على مدة ستة قرون متتالية . ولم يكن في هذا المنظر الطافح بشرًا وسرورًا الّا ظلّ واحد مزعج هو تتابع الهزّات الارضية . وليس من شأن الشاعر نتوز ان يعدّدها ، فضلًا عن انه توفي قبل حدوث تلك السلسلة الهائلة من الزلازل المتتابعة بين السنتين ٥٥١ و٥٥٤ . فقلبت رأساً على عقب هيئة الساحل الفنيقي . ولعلّ نبتون « زوج بيرُوه اللطيفة » غضب في هذا الوقت ، فاغرق « الجزُر الجميلة » التي كانت تحضن زوجته . وقد خربت الجامعة اذ ذاك ، وهلك معها ثلاثون الفاً من السكان . وهكذا كانت نهاية « بيريتوس الرومانيين السعيدة » ، ومركز « معلّمي المسكونة » ، ومدينة يوستنيانوس « الفائقة الجمال ». وقد بكى الشعراء هذا الخطب ، حتى في اقاصي اسبانية ، متأوهين على اقول « نجمة لبنان ».

اني لا اعتذر لديكم عن طول هذا الحديث ولا عن تفاهته . أوَ لسنا جميعاً عشاق بيروت ؟ أوَ يضجر العشاق من حديث احبابهم او من الحديث عنهم ؟

اما ما بقي من مدينتنا فهو ما ستسمعون وصفه الموجز بقلم الاخوين تارو ، قالا : «ان الساحل الفنيقي عاد فدخل في النسيان تيباً من ماضيه المُتقل . وهو لا يزال ذا بهجة وجاذبية ككل الاماكن التي جعل فيها التركي حياته

المائتة ، وخطرات باله ، وقهوته ، وجامعه ... ولكن ما اشبه هذا المظهر بصوت الجلجل الى جنب الجبلة الظبية التي تعمد شيبةً بصخب الامواج من الماضي البعيد ! »

***

حان لي الآن ان اختم هذا الحديث ، طالباً ان نجتهد بتخليص ما يمكن الاحتفاظ به من محاسن بيروت . لقد كثرت الاقتراحات في هذه الايام لتعزيز وسائل السياسة ، وهي مادّة واسعة لارباب الصحف . فان الاجانب كثيرو الفضول . ولكن كيف يمكننا ان نستدعيهم وان نستوقفهم ؟ وماذا نعرض امام عيونهم ؟ اي آثار وايّة تذكارات ؟ وقد عملنا طول السنين الغابرة على قلب هيئة مدينتنا فخربنا كل شيء حتى الخرائب نفسها . بل ان المناظر الطبيعية ذاتها ، تلك المناظر التي اهملها الاتراك ازدراء او جهلاً باستخدامها ، فاننا عملنا على تشويه جمالها الفطري . وهل يمكن لامرتين ان يستعيد ذكرى عدن في هذه المدينة الخالية من مزية خاصّة ؟ وماذا يبقى اليوم من غابتها الصنوبرية من غابة الصليبيين وغابة نزوز ؟ ما لا يستحق الذكر ...

لا ازال اذكر اني عرفت في ڤينا جمعيـة يدعونها « جمعيـة التجميل » (Verschönerungs-Verein) غايـة اعضائها الاساسية ان يسهروا على المناظر والمشاهد الجميلة في عاصمتهم وحولها ، عاملين على حفظها من الخراب ، وعلى تجميلها وتقريبها من انظـار الزوّار والسيّاح . واني لارى في عمل هذه الجمعية فكرةً يجب ان تُدرس ، ومثلاً يجب ان يُتّبع . هذا ما اتركه ، مسك الختام ، لاهل بيروت واصدقائها .